

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الأول بلا ابتداء ، الآخر بلا انتهاء . والصلاة والسلام على المصطفى المختار ، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين . اللهم صلّ وسلّم وبارك عليه وعلى أبويه الكريمين إبراهيم وإسماعيل ، ثم على إخوانه المُصْطَفَيْنِ الأخيار ، وآله الأطهار ، وصحابته الأبرار ، وعلى كل من دعى بدعوته واهتدى بهديه إلى يوم الدين والجزاء .

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، وَثُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، وَاَرْحَمْ اللَّهُمَّ آبَاءَنَا وَأَهْلَانَا وَمَشَائِخَنَا وَأُسْتَاذِينَا وَأُسْتَاذِ أَسَاتِذِنَا ، وَكُلِّ مَنْ لَهُ حَقٌّ عَلَيْنَا .

ثم أمّا بعد :

فإن علم التاريخ عند المسلمين من العلوم الضخمة ، ويوشك هذا العلم أن يكون نصف المكتبة العربية . وانظر علم قوائم الكتب (البليوجرافيا العربية) مثل الفهرست لابن النديم ، ومفتاح السعادة لطاش كبرى زاده ، وكشف الظنون للحاج خليفة ، وذيله : إيضاح المكنون لإسماعيل البغدادي ، وانظر ما يصنعه العلماء لأنفسهم من المعاجم والفهارس والمشيخات والأثبت والبراج .

ثم انظر من المصنّفات الحديثة في هذا العلم - علم قوائم الكتب - اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ، لإدوارد فنديك ، ومعجم المطبوعات العربية والعربية ، ليوسف إلبان سركيس ، وخزائن الكتب العربية في الخافقين للفيكونت فيليب دى طرازى ، وتاريخ الأدب العربى للمستشرق الألمانى كارل بروكلمان ، وتاريخ التراث العربى للدكتور محمد فؤاد سزجين .

ثم انظر في فهارس المكتبات العامة الكبرى الموزعة على الفنون . بل ادخل

مكتبة من المكتبات الخاصة التي يُعنى أصحابها بجمع الكتب : وسترى في ذلك كله غلبة ظاهرة لعلم التاريخ ^(١) .

وتفسير هذا أن علم التاريخ عند المسلمين ليس هو فقط تلك الكتب الحَوْلِيَّة ، مثل تواريخ الطبرى وابن الأثير وابن كثير ، أو كتب الأحداث العامة ، مثل مروج الذهب ، والتنبيه والإشراف للمسعودى ، وإنما يدخل فيه ، بل يمثل الجانب الأكبر منه « فن التراجم » وهو بحرٌ خضمٌ .

على أن « فن التراجم » عند المؤرخين المسلمين لا يُعنى فقط بذكر أحوال المترجم : مولداً ووفاةً ، وشيوخاً وتلاميذ ، وعِلماً وتصنيفاً ، بل إنه غالباً - وبخاصة في الموسوعات - يمتد ليشمل الحوادث والأحداث العامة التي يكون العلم المترجم قد شارك فيها ، أو عاصرها ، أو كان منها ، أو كانت منه بسبب ، بل إن بعض مصنفى كتب التراجم يعرض للحوادث والأحداث بدواعي الاستطراد ليس غير ، والاستطراد سمة من سمات التأليف عند كثير من علمائنا ومؤرخينا .

وعلى سبيل المثال فإن كتاباً مثل « طبقات الشافعية الكبرى » لتاج الدين ابن السبكي يضعه مصنفو العلوم في فن التراجم والطبقات ، إذ كان مؤلفه قد أقامه على تراجم الفقهاء الشافعية منذ إمامهم محمد بن إدريس الشافعى في أوائل القرن الثالث ، إلى منتصف القرن الثامن ، ولكن النظر الصحيح يضعه في المكتبة العربية كلها ، إذ كان مؤلفه قد أداره على علوم كثيرة ، بعد أن يفرغ من ترجمة الرجل على رسمها المعروف ، ثم كان لأحداث التاريخ عنده النصيب الأوفى ، فأنتجده عنده أحاديث ضافية عن كائنة التثار ، وقصة جنكيزخان وحفيده هولاكو ، وعن حادثة الصليبيين ^(٢) . وقُل مثل هذا في كثير من موسوعات كتب التراجم ، مثل وفيات الأعيان لابن خلكان ، وسير أعلام النبلاء للذهبي ، ونفع الطيب للمقرئ .

(١) تأمل على سبيل المثال فهرس دار الكتب المصرية ، وفهارس معهد المخطوطات .

(٢) انظر الطبقات ١/٣٢٨ - ٣٤٣ ، ٧/٣٤٤ - ٣٦٩ ، ٨/٢٦٨ - ٢٧٧ .

ولقد تَفَتَّنَ المؤرِّخون المسلمون في كُتُب التراجم تَفَنُّناً عَجيباً ، وأخذت تصانيفهم في هذا الفن طرائق شتى ، فبعد كتاباتهم الأولى في السِّيرة النبوية والمغازي ، جاءت تصانيفهم مُوزَّعة مفرقة على تراجم الصحابة والتابعين ، والقراء والمفسرين ، والمحدثين والرؤاة ، وفقهاء المذاهب الأربعة ، والأصوليين ، والشيعة والمعتزلة ، والزُّهاد والصُّوفية ، والوعاظ والقُصَّاص والمذكِّرين ، والأدباء والشعراء ، واللغويين والنحاة ، والأطباء والحكماء والفلاسفة ، والقضاة ، والخلفاء والوزراء ، والمؤرِّخين والنسَّابين ، وتراجم النساء .

ثم يأتيك هذا الفن أيضاً في التراجم على البلدان ، مثل أخبار مكة والمدينة والقدس ، ومصر واليمن وبغداد والموصل والشام وجرجان وأصبهان وإربل وواسط ، والمغرب والأندلس ، والكُتُب في هذين فيضٌ زاخر .

وكذلك في التراجم على القُرُون : كالذُّرَر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، لابن حجر العسقلاني ، والضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، لشمس الدين السُّخاوي ، وما جاء بعد ذلك إلى القرن الرابع عشر ^(١) .

ثم تأتي التراجم العامة - وهي كتب التاريخ عند بعض الناس ممن ليس عندهم كبيرُ علم ، يظنون أنها كُتُب التاريخ ، ولا كُتُب للتاريخ غيرها - وهذه التراجم العامة على قسمين :

أ - التراجم المرتبة على السنين ، وذلك في كتب التاريخ المعروفة بالحواليات ، كتاريخ الأمم والملوك للطبري ، والكامل لعز الدين بن الأثير ، والمختصر في أخبار البشر ، لأبي الفداء الملك المؤيد ، صاحب حماة ، والعبّر في خبر من عبّر للذهبي ، والسلوك للمقريزي ، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي .

(١) انظر هذه السلسلة من التراجم على القرون في كتابي : الموجز في مراجع التراجم ص ٧٤ ، وانظر كتب التاريخ بمناهجها المختلفة في الوافي بالوفيات ٤٧/١ ، وما بعدها .

ب - التراجيم المرتبة على الأسماء . ومن أبرزها : وفيات ^(١) الأعيان لابن خَلْكَان ، وفوات الوفيات لابن شاعر الكتبي ، والوفاء بالوفيات للصفدي ، وسير أعلام النبلاء للذهبي ^(٢) .

ثم تأتيك التراجيم أيضاً في كُتُب أنساب العرب ، مثل مختلف القبائل ومؤتلفها لابن حبيب ، والاشتقاق لابن دريد ، والإيناس بعلم الأنساب للوزير المغربي ، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ، وعُجالة المبتدى وفُضالة المنتهى في النسب لأبي بكر الحازمي .

وفي كتب الأنساب بَوَجْهِ عام ^(٣) : إلى قبيلة ، أو بلد ، أو صناعة ،

(١) كتاب ابن خَلْكَان هذا يذكرنا بتلك الكتب التي قامت على الوفيات بمفهوم آخر ، وأذكر منها هنا : وفيات المصريين في العهد الفاطمي لأبي إسحاق بن الحَبَّال المتوفى سنة ٤٨٢ ، والوفيات لأبي مسعود الأصبهاني المتوفى سنة ٥٦٦ ، والتكملة لوفيات الثُقَلَة للحافظ المنذري المتوفى سنة ٦٥٦ ، ووفيات ابن قُتُغْد المتوفى سنة ٨١٠ .

والفرق بين هذه الكتب وبين وفيات ابن خَلْكَان أن هذا نُزِل أسماء الأعيان في « وفياته » على منازلهم من الترتيب على حروف المعجم ، وكذلك صنع ابن شاعر والصفدي اللذان حمل كتابهما نفس عنوان ابن خَلْكَان . أمَّا الوفيات المذكورة فقد قامت أساساً على الوفيات ، فتذكر السنة وتحمل أسماء من تُوفوا فيها ، أو تذكر الأعلام المترجمين بتسلسل بني وفياتهم . وللمؤرخين المسلمين في هذا اللون من التأليف - الوفيات - جهودٌ ضخمة ، تراها وترى الكلام على مناهجها في كتاب صديقي الدكتور بشار عواد معروف (المنذري وكتابه التكملة) ص ١٩٩ وما بعدها .

(٢) وهذا الحافظ الذهبي مؤرخ الإسلام ، ركنٌ باذخ من أركان التاريخ الإسلامي ، وكتاباته في هذا العلم راحة واسعة ، ويأتي على رأسها كتابان : أولهما تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام . وقد تناول فيه تاريخ الإسلام من بدء الهجرة النبوية حتى سنة ٧٠٠ ، فجَمَعَ مادّة ضخمة في نطاقه الزماني المتدّ عبر سبعة قرون كاملة ، وفي نطاقه المكاني الشامل لجميع الرقعة الواسعة التي امتدَّت إليها الإسلام من الأندلس غرباً إلى أقصى المشرق . ويُعَدُّ هذا الكتاب من أجمع كتب التراجيم ، إذ تُقَدَّر تراجيمه بأربعين ألف ترجمة . انظر كتاب صديقي الدكتور بشار عواد معروف - أحسن الله إليه - (الذهبي ومنهجه في كتابة التاريخ الإسلامي) .

والكتاب الثاني : هو سير أعلام النبلاء . وهو مطبوعٌ متداول ، في خمسة وعشرين مجلداً ، منها مجلّدان للفهارس . وهو كتاب تاريخ وعلم وحضارة .

(٣) انظر وجوه الأنساب في أعلام الحديث للخطابي ص ١٧٥٩ ، والوفاء بالوفيات ٢٢/١ ، ٢٣ .

أو مذهب ، أو شيخ . ومن هذه الكتب : الأنساب لأبى سعد السمعاني ،
والتراجم في هذا الكتاب غنيّة جداً ، واللُّباب في تهذيب الأنساب لعز الدين بن
الأثير ، ولُبُّ اللُّباب في تحرير الأنساب للسيوطي .

وفي كتب ضبط الأعلام والكنى والألقاب والأنساب ، مثل المبهج في تفسير
أسماء شعراء الحماسة لابن جنى ، والإكمال في رفع الارتياح عن المختلف والمؤتلف
من الأسماء والكنى والأنساب للأمير ابن مأكولا ، وتكملة الإكمال لابن نقطة
البغدادى الحنبلى ، والمشتبه في الأسماء والأنساب والكنى والألقاب للذهبي ،
وتبصير المنتبه بتحرير المشتبه لابن حجر العسقلاني .

وفي كتب البلدان (الجغرافيا العربية) مثل معجم ما استعجم للبكري ،
ومعجم البلدان لياقوت الحموى ، والروض المعطار في خبر الأقطار للحميرى .
وتأتيك التراجم أيضاً في علم قوائم الكُتُب (البليوجرافيا العربية) مثل
الفهرست لابن النديم ، ومفتاح السعادة ومصباح دار السيادة لطاش كبرى زاده ،
وكشف الظنون للحاج خليفة - وقد أشرت إلى ذلك في صدر هذه المقدمة .
ومن هذا الفن فرعٌ مهم جداً ، وهو ما يعرف بالمعاجم والفهارس
والمشيخات والأثبات والبراج ، وهو لون من التأليف يجمع بين الشيوخ والكتب ،
فقد جرى كثيرٌ من العلماء على أن يصنع لنفسه معجماً أو فهرساً أو مشيخة
أو ثبناً أو برنامجاً ، يذكر فيه شيوخه الذين أخذ عنهم العلم ، والكتب التى سمعها
منهم ، مُستندّة إلى مؤلفيها (١) .

ثم تأتى التراجم أيضاً في ذلك اللون من التأليف الذى يُديره المصنّفون
حول علَمٍ واحد أو اثنين أو ثلاثة ، ثم يستطردون من ذلك إلى تراجم أخرى
بالتبعية أو المناسبة ، كما ترى في : مناقب الإمام أبى حنيفة وصاحبيه أبى يوسف
ومحمد بن الحسن ، للذهبي ، ومناقب الشافعى للبيهقى ، ومناقب الإمام أحمد
لابن الجوزى ، والانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء : مالك والشافعى وأبى

(١) انظر تفصيلاً أكثر عن هذه الكتب في كتابي : الموجز ص ١٠١ - ١٠٥ .

حنيفة ، لابن عبد البر ، وتبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري لابن عساكر ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ، وسيرة عمر أيضاً لابن الجوزي ، والمصباح المضيء في خلافة المستضيء ^(١) لابن الجوزي ، ومحاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي ، لأحد رجال القرن التاسع ، كما ذكر محققه ونشره الأمير شكيب أرسلان ، في آخره .

وتأتيك التراجم أيضاً فيما يُسمّى بكتب الحضارة الإسلامية ، مثل المعارف لابن قتيبة ، والمحبر والمنمق ، كلاهما لابن حبيب ، ومروج الذهب والتنبيه والإشراف ، كلاهما للمسعودي ، ولطائف المعارف للثعالبي .

وهناك باب عظيم أيضاً من باب التراجم ، هو ما يُعرف بالسُّؤالات ، مثل سؤالات أبي عبيد الأجرى : أبا داود السُّجستاني ، وسؤالات عثمان بن سعيد الدارمي : يحيى بن معين ، وسؤالات أبي عبد الرحمن السُّلمي : الدارقطني ، وسؤالات الحافظ السُّلفي : حَمِيصاً الحَوْزِي ، عن جماعة من أهل واسط ^(٢) .

وواضح أن هذه السُّؤالات تدور حول علم الرجال - وهو علم الجرح والتعديل - لكنها مع ذلك اشتملت على تراجم لغير المحدثين ، ثم تضمنت فوائد جلية في التاريخ وغيره ، كما ترى مثلاً في سؤالات الحافظ السُّلفي المذكورة ^(٣) .

* * *

ومن وراء ذلك كله : فإن التراجم تأتيك في غير مَظَانِّها - وهو بابٌ طويلٌ جداً - حَسْبِي أن أشير إلى شيءٍ منه هنا ، رغبةً في إفادة طالب العلم

(١) فهذا وإن كان ظاهره أنه في مناقب الخليفة العباسي المستضيء ، فإنه ليس خالصاً له ، وإنما استطرد ابن الجوزي فيه إلى تراجم كثيرة للخلفاء والصحابة وللخلفاء العباسيين ، مع عناية ظاهرة بالوعظ والتذكير ، يقدمها ابن الجوزي للسلطان أو للحاكم لكي يستضيء بها في معالجة الأحوال السياسية والاجتماعية ، كما ذكرت محقق الكتاب المذكورة ناجية عبد الله إبراهيم .

(٢) انظر شيئاً عن هذه السُّؤالات في مقدمة تحقيق سؤالات أبي عبيد الأجرى ص ٦٠ .

(٣) انظر مقدمة محققها ص ٢٥ ، وانظر شيئاً من الفوائد في السُّؤالات نفسها ص ٢٤ .

الشَّادِي المبتدئ ، أمّا أهل العلم وخاصّته فهم أقدر منى على ذلك وأبصر
ثم إنى أريد أيضاً أن أؤكد على أن المكتبة العربية كتاب واحد ، وأن العلوم
يحتاج بعضها إلى بعض ، وأنه لا يُغنى كتاب عن كتاب :

معلوم أن تراجم الصحابة ثلثت من كتبها : الطبقات الكبرى لابن سعد ،
والاستيعاب لابن عبد البر ، وأسد الغابة لعز الدين بن الأثير ، والإصابة لابن
حجر . ولكنك إذا أردت ترجمة صحابى على نحو كامل مستوعب ، فلا بد لك
من النظر فى كتب أخرى ، منها دواوين السنّة : صحاحها ومسانيدها ، فقد
أفرد أصحاب السنن فى دواوينهم كتباً وأبواباً تُسمى : المناقب أو الفضائل ،
ويسمى الحاكم النيسابورى فى المُستدرك : معرفة الصحابة . ولا غنى لك أيضاً
عن النظر فى كتاب هذى السارى مقدمة فتح البارى ، فقد أفرد فيه ابن حجر
مكاناً ضخماً لتراجم الصحابة والتابعين ، ولا تقل إنه سيكرّر فى كتابه هذا
ما ذكره فى كتبه الأخرى ، مثل الإصابة وتهذيب التهذيب ، لا تقل هذا ؛ لأن
فى كلّ كتاب من الفوائد ما ليس فى الآخر (١) .

ومن باب التماس التراجم من غير مَظَانِّها : ماتراه من تراجم اللغويين
والنحاة الأوائل فى مقدمة معجم تهذيب اللغة للأزهري ، وفى كتاب الزهر فى
علوم اللغة للسيوطى ، ومائثره العلامة عبد القادر بن عمر البغدادى فى موسوعاته
الكبرى : خزانة الأدب ، وشرح أبيات مغنى اللبيب ، وحاشيته على شرح بانة
سعاد لابن هشام ، وشرحه على شواهد شرح التحفة الوردية . وباب التراجم
عند البغدادى باب واسع جداً ، لأن مكتبته كانت ضخمة جداً .

وقل مثل هذا فى كتاب المرتضى الزبيدى ، الضخم « تاج العروس من
جواهر القاموس » ففى هذا الكتاب أنساب وتراجم كثيرة جداً ، وبخاصة ما يتصل

(١) انظر على سبيل المثال ترجمة « عكرمة مولى ابن عباس » فى تهذيب التهذيب ٢٦٣/٧ ، وفى
هذى السارى ص ٤٢٥ ، وتأمل الفرق بين مساق الترجمة فى الكتابين .

بالمُتأخِرِينَ ، وعلى ذِكر اللُغويِّين والنحاة ، فإن أوسع ترجمة وأشملها لواضع النحو
أبى الأسود الدُّؤلى ، تراها فى كتاب الأغانى (١) .

وكذلك تجد أجود ترجمة وأحسن كلام عن أبى سعيد السِّمرافى النحوى
الكبير فى كتاب الإمتاع والمؤانسة ، لأبى حيان التوحيدى ، وكان هذا شديد
الإعظام لأبى سعيد ، والتَّوقير له (٢) .

وتنتثر التراجم أيضاً فى معارف القوم وعلومهم : ففى موسوعات التفسير
والحديث والفقه وأصوله وعلم الكلام ، وكتب الأدب واللغة وشروح الشعر ،
وسائر فروع العلم ، استطرادات مهمة فى تراجم الرجال .

وأريد أن أذكر بما قلته فى صدر هذه الكلمة الموجزة ، من أن علم التاريخ
الإسلامى بمعنى الحوادث والأحداث قد اختلط بعلم التراجم والطبقات ، كما أن
هذا العلم اختلط أيضاً بكتب التاريخ القائمة أساساً على الحوادث والأحداث ،
دخل كل منهما فى نسيج الآخر والتحم به ، بل إن علومنا كلها يجذب بعضها
بعضاً ، على نحو ما قال سفيان بن عُيينة : « كلام العرب بعضه يأخذ برقاب
بعض » (٣) .

إن علم التاريخ عند المسلمين ليس كعلم التاريخ عند الأمم الأخرى : أحداثاً
وثقَلبات أيام ودُّول فقط ، إن كتب التاريخ عندنا هى مَجَلِّى حضارتنا وثقافتنا
العربية والإسلامية كلها :

(١) فقد جاءت الترجمة فى ٣٨ صفحة من القطع الكبير ، وذلك فى الجزء الثانى عشر ، من ص ٢٩٧ - ٣٣٤ ، والمُلَّة فى ذلك واضحة ، وهى جامعة « التَّشْيِيع » التى تجمع بين أبى الأسود وأبى الفرج ، ولكن أبى الفرج أفادنا فوائد جيِّدة فى ترجمة أبى الأسود . وأتبع هنا إلى أن الصَّدِّدِى قد اعتبر « كتاب الأغانى » من مصادر كتب التاريخ ، ووضعه فى قائمة « التواريخ الجامعة » كتاريخ الطبرى وما إليه ، انظر الرواى بالوفيات ٥٠/١ .

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١/١٠٨ ، وما بعدها ، ثم انظر مواضع أخرى من فهرس الأعلام للكتاب . وانظر أيضاً فهرس الأعلام من كتاب البصائر والذخائر ١٠/٤٢ ، وفهرس الأعلام من الصداقة والصدى ص ٤٧٥ ، ومن مثالب الوزيرين ص ٣٧٠ ، ومن المقابسات ص ٣٩٠ ، ٣٩١ .

(٣) الأغانى ١٨/١٧٠ (أخبار ابن منذر) .

إن علماء الحديث يُخَرِّجون أحاديثهم من « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي ، وأهل الأدب يجمعون أشعار الشعراء من « تاريخ دمشق » لابن عساكر ، وكذلك يجمعون الشعر من كتب الجغرافيا العربية : معجم ما استمعجم للبكري ، ومعجم البلدان لياقوت الحموي ، والروض المعطار للحميري ، كما جمعوا منها التراجم من قبل .

بل إن اللغة والشعر يُجمعان من كتب النبات وكُتُب الهيفة ، كالذي تراه في كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري ، وكتاب الأزمنة والأمكنة للمرزوقي . والحديث في هذا ونحوه مما يطول جداً .

* * *

وهذا الذي ذكرته على سبيل الوجازة والاختصار - وقد فاتني منه الكثير - يدلُّك ، إن شاء الله ، على اتِّساع دائرة علم التاريخ عند المسلمين : أحداثاً وتراجم ، ولعله يُزهِدُكَ في تلك الدعوة التي تُثار بين الحين والآخر : وهي دعوة (إعادة كتابة التاريخ الإسلامي) على ما يرى بعضهم من بُذ الكتاب القديم ، بعد استخلاص مُجملِهِ ، وتخليصه من الشوائب التي فيه ، ثم تقديمه بلغة العصر . وذلك كله مَرَكَّبٌ صَغْبٌ وطريقٌ مَخُوفٌ ، وهو مما يَحْبِطُ الناسُ فيه خَبْطاً شديداً ، وليس هنا موضع الردِّ على هذه القضية ، لكن لا بأس من التذكير ببعض الأمور :

أولاً : إذا بُتَّ عِنْدَكَ اتِّساعُ دائرة التاريخ الإسلامي ، فإن من يُحاول إعادة كتابة ذلك التاريخ لابدُّ أن يكون على معرفة بمراجع التاريخ الإسلامي بفرعِهِ : الأحداث والتراجم ، ثم ما يتناثر منه في تضاعيف الفنون الأخرى ، كما حدَّثْتُكَ قريباً .

ثانياً : اللغة هي الباب الأول في ثقافة أمةٍ من الأمم ، فواجبٌ على من يتصدَّى لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي أن يكون متضلِّعاً - أو على الأقلَّ

عارفاً - من اللغة : مألوفها وغريبها ، ونحوها وصرفها ^(١) ، ثم التنبيه للأعراف اللغوية لكل عصر من العصور ^(٢) .

ثالثاً : إن من يعيد كتابة تاريخ من تواريخ السابقين ، أو يحاول اختصار كتاب في علم من العلوم ، أو تهذيبه ، لا بد أن يكون في علم صاحب الكتاب الأصلي ، أو على درجة مقاربة له ؛ لأن المعيد أو المختصر أو المهذب حيثذ يكون سمياً بصيراً ، يعرف ماذا يأخذ وماذا يدع ، ولذلك قيل أهل العلم « مختصر صحيح مسلم » للحافظ المنذرى ، ومختصر « تفسير الطبرى » لأبى يحيى محمد ابن صُمَادِج التَّجِيبِ ، وتهذيب « أنساب السُّمَعَانِ » وهو المسمى للباب ، لعز الدين بن الأثير ، و « مختصر الأغاني » و « مختصر تاريخ دمشق » لابن عساكر ، كلاهما لابن منظور صاحب « لسان العرب » . وفي عصرنا الحديث قبلنا « تهذيب الأغاني » للشيخ محمد الخضرى ، و « تهذيب سيرة ابن هشام » وتهذيب « الحيوان » للجاحظ ، كلاهما لأستاذنا العلامة عبد السلام محمد هارون ، برَدَ اللهُ مَضْجَعَهُ .

رابعاً : إن الخدمة الحقيقية لتاريخنا إنما تكون بإعادة تحقيقه ونشره وفق

(١) ليس على سبيل الإلتقان والإحاطة ، فهذا غير وارد وغير ممكن ، ولكن على سبيل المعرفة التى تعصم من الأخطاء الشنيعة البلقاء . يقول الحافظ البزْزَى فى مقدمة كتابه تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ص ١٥٦ : « وينبغى للناظر فى كتابها هذا أن يكون قد حصل طرُقاً صالحاً من علم العربية : نحوها ولفظها وتصريفها ، وبين علم الأصول والفروع ، ومن علم الحديث والتواريخ وأيام الناس » .

وانظر شروط المؤرِّخ فى الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ١١٤ ، ومابعدها ، وطبقات الشافعية الكبرى ٢٣/٢ ، ومابعدها ، والوالى بالفوات ٤٦/١ .

(٢) تظهر الهمة فى هذا الأمر واضحة جليلة عند من يتصنَّون للتاريخ المملوكى ، وهو زاهر بالأعراف اللغوية والمصطلحات غير المألوفة إلا لمن جمع مراجع ذلك العصر : لغة وأدباً وتاريخاً ، وعندى من ذلك أمثلة كثيرة ، إذ كنت فى بدايات العلمة أيام نسخ المخطوطات والعمل مع المستشرقين على صلة بذلك الأمر ، وقد أثرت إلى شئ من ذلك فى كتابى مدخل إلى التاريخ نشر التراث العربى ص ٢٢٧ .

الأصول العلمية الصحيحة ، ثم فهرسته الفهرسة العلمية الفنية ، ولست أعنى مجرد تلك الفهارس التقليدية المألوفة ، مثل فهارس الأعلام والقبائل والمواضع والشواهد ، وإنما أريد - إلى جانب ذلك - فهارس العلوم والفنون المختلفة وحوادث الأيام ، المبثوثة في ثنايا الكتاب المحقق ، بضم النُّظير إلى النُّظير ، وقرن الشَّيْء إلى الشَّيْء ، وستكون هذه الفهارس الفنية الكاشفة عُدَّةً وَعَوْنًا للدراسات والبحوث التي لا تقوم إلا على النصِّ الموثق المحرَّر .

أما ما يُقال عن غزيلة التاريخ الإسلامي ، وتصفيته من الأخطاء والأوهام ، وتخليصه من محاباة الحُكَّام والملوك ، وتنقيته من مظاهر الإسراف والمُبَالَغات ، ثم ما يُقال لك مِن أَنَّ ما ضَيَّنَا غارقٌ في الظُّلُمات : فكلُّ أولئك من الكلام الذي يرسَلُ إرسالاً ، لثَمَلًا به مجالسُ السَّمَر ، ويَتَّخَذُ سبيلًا لادِّعاء العلم .. ولذلك وأشباهه حديثٌ آخر .

...

هذا الكتاب

لَوْ مِنْ أَلْوَانِ تُغْنِي الْمُرُخِينَ فِي « فَنِّ التَّرَاجِمِ » ، فَالْكِتَابُ يَدُورُ حَوْلَ وَفَايَاتِ الْأَعْيَانِ - أَيْ مَشَاهِيرِ النَّاسِ فِي مُخْتَلِفِ مَوَاقِعِهِمْ وَمَنَاصِبِهِمْ - عَلَى الْعُقُودِ ، فَيَذْكُرُ الْمُؤَلِّفُ عَلَى رَأْسِ الْعَقْدِ مِنَ السَّنِينَ وَفِي ثَنَائِيهِ مَنْ تُوُفِّيَ فِيهِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَعْيَانِ الْمَشَاهِيرِ : فَهَؤُلَاءِ تُوُفُّوا فِي الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُثْمَرِهِمْ ، وَهَؤُلَاءِ تُوُفُّوا فِي الْخَمْسِينَ ، وَفَرِيقٌ ثَالِثٌ تُوُفِّيَ بَيْنَ هَذَيْنِ الْعَقْدَيْنِ ... وَهَلُمَّ جَرًّا عَلَى هَذَا الْمَنْهَجِ : ذَكَرَ أَعْمَارَ النَّاسِ عَلَى رِعَوسِ الْعُقُودِ ، وَمَا بَيْنَهَا مِنَ السَّنِينَ .

وَقَدْ بَدَأَ الْكِتَابَ بِمَنْ تُوُفُّوا فِي سِنِّ الْعَاشِرَةِ وَمَا زَادَ عَلَيْهَا - وَهُمْ أَوْلَادُ الْعُلَمَاءِ الْأَعْيَانِ - وَانْتَهَى بِوَفَايَاتِ الْمُعَمَّرِينَ مِنْ عَقْدِ الْأَلْفِ وَمَازَادَ .

وَهَذَا مَنِهْجٌ جَدِيدٌ فِي تَرَاجِمِ النَّاسِ ، لَمْ أَجِدْ لَهُ شَبِيهًا قَبْلَ ابْنِ الْجَوْزِيِّ إِلَّا مَا ذَكَرَهُ أَبُو مَنْصُورٍ الثَّعَالِبِيُّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٢٩ ، فِي كِتَابِهِ (لَطَائِفُ الْمَعَارِفِ) ، تَحْتَ عُنْوَانِ (اتِّفَاقُ الْأَعْمَارِ) وَلَمْ يَأْخُذْ هَذَا مِنَ الْكِتَابِ سِوَى صَفْحَةٍ وَاحِدَةٍ (١) .

وَمِنْ هَذَا الْمَنْهَجِ - وَإِنْ كَانَ فِي نِطَاقِ ضَيِّقٍ - كِتَابُ (أَعْمَارُ الْخُلَفَاءِ) لِأَبِي الْحَسَنِ الْمَدَائِنِيِّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٢٢٨ (٢) .

وَمِنْهُ أَيْضًا (أَعْمَارُ الْأُئِمَّةِ) وَهُوَ رِسَالَةٌ لِأَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْفَرِيَّابِيِّ ، مِنْ عُلَمَاءِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ ، وَهِيَ مَخْطُوطَةٌ بِمَكْتَبَةِ جَلْبِي عَبْدِ اللَّهِ بِاسْتَنْبُولِ (٣) .

(١) لَطَائِفُ الْمَعَارِفِ ص ١٣٨ .

(٢) الْوَالِي بِالْوَفَايَاتِ ٤٤/٢٢ ، وَلَا أَعْرِفُ لِكِتَابِ الْمَدَائِنِيِّ هَذَا وَجُودًا .

(٣) تَارِيخُ التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ - الْمَجْلَدُ الْأَوَّلُ ، الْجُزْءُ الْأَوَّلُ - عُلُومُ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ ص ٣٢٢ .

الكتاب بين مؤلفات ابن الجوزي التاريخية

يُعَدُّ ابن الجوزي من المصنِّفين الكثيرين ، وقد قال عنه الحافظ الذهبي :
« وما علمتُ أحداً من العلماء صنَّف ما صنَّف هذا الرجل » (١) .

وقد دارت تصانيف ابن الجوزي حول معظم فنون العربية : في التفسير
وعلم القرآن والحديث والفقه واللغة والأدب والوعظ والتصوف .

ويحتلُّ « التاريخ » مكانة بارزة في مؤلفات ابن الجوزي ، ومن أشهر
مصنَّفاته التاريخية مما هو مطبوع : المتظم ، وصفة الصفوة ، وشذور العقود في
تاريخ العهود ، وتلقيح فهم أهل الأثر ، وكتاب القصَّاص والمذكرين ، والذهب
المسيوك في سير الملوك ، وعقلاء المجانين ، وأخبار الأذكياء ، وأخبار الحمقى
والمغفلين ، وأخبار الظُّراف والمتاجنين ، والمصباح المضيء في خلافة المستضيء ،
ومشَيِّخته (٢) .

ولمَّا كان ابن الجوزي قد وُلِدَ سنة ٥١٠ تقريباً ، وهذا الكتاب (أعمار
الأعيان) قد قرئ عليه سنة ٥٨٥ ، فيكون قد صنَّفه وهو في نحو الخامسة
والسبعين ، وهي سنٌ مَن مَضَى به العُمُر والتصنيف أشواطاً بلغت به المدى .
فيكون رحمه الله قد وظَّف معارفه التاريخية في هذا الكتاب ، وأقامه على هذا
المنهج الذي لم يُسبق إليه ، كما أُشِّرت ، فالذي يُولف كتاباً في الأعمار ، لا بدَّ
أن يكون قد مارس التاريخ طويلاً ، ونظر في تراجم الناس كثيراً ، ووقف عند
مواليدهم ووفياتهم ، ثم خَصَّص وطَّرَح ، حتى يستقيم له هذا المنهج .

(١) تذكرة الحفاظ ص ١٣٤٤ . وقد صنَّف الأستاذ عبد الحميد العلَّوحي كتاباً في مصنَّفات ابن
الجوزي سَمَّاه : مؤلفات ابن الجوزي ، وطبع ببغداد سنة ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٥ م ، واستدركت عليه
وزادت أشياء المذكورة ناجية عبد الله إبراهيم ، في عمَل سَمَّته : قراءة جديدة في مؤلفات ابن الجوزي ،
وطبع ببغداد أيضاً سنة ١٩٨٧ .

(٢) انظر : التاريخ العربي والمؤرخون - للدكتور شاکر مصطفى - الجزء الثاني ص ١٠٩ - دار -
المعلم للملايين - بيروت ١٩٨٧ م ، وانظر الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ - الفهارس ص ٤٢٣ .

فوائد هذا المنهج من التراجم

لعل ناظراً عاجلاً في هذا الكتاب على هذا المنهج ، يرده إلى الطرائف والتوارد والمسامرات ؛ لأن ابن الجوزي يذكر فيه مثلاً أن سيدنا رسول الله ﷺ توفي في سنّ الثالثة والستين ، وهي السنّ التي توفي فيها أبو بكر الصديق وعمر ابن الخطاب وعبد الله بن مسعود ، رضى الله عنهم أجمعين ، وغيرهم من المشاهير (١) .

ويذكر أن الخليفة هارون الرشيد مات في السابعة والأربعين ، وهي السنّ التي مات فيها ابنه المأمون (٢) .

وهؤلاء إخوة ثلاثة ولئوا في سنة واحدة ، وثوفوا في سنة واحدة ، وهم : يزيد وزباد ومدرک ، بنو المهلب بن أبي صفرة (٣) .

فهذا كله مما قد يدخل في باب المسامرة والمذاكرة . ولكن ليس الطريق هنالك ! ففى هذا الكتاب بذلك المنهج فوائد تاريخية ، تراها أيها القارئ الفطن ، إذا أثبت على الكتاب : قراءة بصيرة وتذبر ، ولكنى أو نسك بالدلالة على شيء منها ، ولعلك - إن شاء الله - بالغ بأناتك ما لم أبلغه بعجليتى :

أولاً : تصحيح التصحيف ، وذلك أنه يشيع في بعض كتبنا فيما يتصل بعقود الأعداد ، الخلط بين « السبعين » و « التسعين » ، ولذلك يقيد بعض المؤلفين أو الناسخين الضابطين بالعبارة ، بقولهم : « السبعين ، بتقديم السين » ، و « التسعين بتقديم التاء » ، ويهمل ذلك بعضهم فيقع الخلط بالتصحيف . فذكر العقود في كتابنا هذا وسيلة أمان من ذلك التصحيف المأثور . وقد صحح ذلك المنهج بعض ما رأيته من ذلك في كتب التراجم (٤) .

(١) انظر ص ٤١ من الكتاب .

(٢) ص ٣٢ ، لكنى علقت هناك بأن هذا لا يستقيم بالنسبة للرشيد ، فإنهم ذكروا مولده سنة ١٤٨ ، أو ١٤٩ ، أو ١٥٠ ، وأنه تولى سنة ١٩٣ ، فيكون قد مات دون السابعة والأربعين التي ذكرها المصنف .

(٣) ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٤) انظر تراجم (جبر بن عتيك ، وعبد الله بن عمرو ، وطاوس بن كيسان ، وأبي الحسن المدائني ، وأبي سعيد الخدري ، ونحوها بن جبر) صفحات ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٨٩ .

ثانيا : بعضُ الأعلام لم يذكر المترجمون لهم إلا سنة وفاتهم ، فيذكر مَلَفُ أعمارهم عند وفاتهم عَرَفْنَا سنة ميلادهم . وهذا في الكتاب كثير .

ثالثا : بعض الأعلام لم يذكر المترجمون لهم تاريخ مولد أو تاريخ وفاة ، فلم يَتَّقِ عنهم إلا مبلغ عمرهم الذي ذكره المصنّف ، ويترك تحديّد العصر والزمن لظروف العَلَم المترجم ؛ روايةً وشيوخاً وتلاميذاً ^(١) .

وفيما وراء تلك الفوائد التي يُتيحها لنا منهج الكتاب ، نقف عند فوائد أخرى ، منها :

أولاً : في تراجم المُعَمَّرين جاءنا ابن الجوزي بزيادات لم تأت في أشهر كتاب عن المعمرين ، وهو كتاب أبي حاتم السُّجستاني ^(٢) ، بل إنه حكى أشياء عن أبي حاتم ليست في كتابه المعمرين المطبوع ، ممّا يُرجح أن في هذا المطبوع منه نقصاً .

ثانيا : ضَبَطَت النسخة المخطوطة من الكتاب - وهي مقروءة على ابن الجوزي ، كما يأتي بيان ذلك إن شاء الله - ضَبَطْتُ بعضَ الأعلام المشتبهة ، ممّا كان سَنَدًا لبعض علماء المُشْتَبِه فيما بعد ^(٣) .

ثالثا : لابن الجوزي (مَشِيخَة) ذَكَرَ فيها شُيُوخَهُ ومُرُويَاتِهِ عنهم ، وهي مطبوعةٌ مُتَدَاوِلَةٌ ، ولكنه ذكر في كتابنا هذا ثلاثةً من شيوخه لم يذكرهم في (مشيخته) وهم : أبو الحسين بن الفراء ، وزاهر بن طاهر ، وأبو الحسن ابن عبد السلام ^(٤) . كما أنه أيضاً صَحَّحَ شيئاً في تلك (المشيخة) ^(٥) .

(١) انظر ترجمة (نصر بن زياد) ص ٨٧ ، واجتهدت فيه اجتهادات أرجو أن تكون صحيحة . وانظر أيضاً ترجمة (الزبير بن خبيب) ص ٥١ و ترجمة (أحمد بن جعفر بن حمدان السَّقَطِي) ص ٩١ .

(٢) انظر تراجم (أكرم بن صَيْفِي ، وأبيه صَيْفِي ، وأبي وجزة) صفحتي ١٠٦ ، ١١٢ .

(٣) انظر ترجمة (ثُوب بن ثُلَّة) ص ١٠٨ ، و (مِرْدَاس بن ضَبَّيْم) ص ١١١ .

(٤) انظر ص ٥٣ ، ٧٤ ، ويبدو أنه اكتفى في (مشيخته) بالأكابر منهم فقط ، فقد قال في

ختامها ص ١٩٨ : « هذا آخر المشايخ الأكابر ، وقد سمعتُ من جماعةٍ غيرهم ، ولي إجازات من خلق بطول ذكرهم » . ولكن هؤلاء المذكورين من الأكابر أيضاً .

(٥) انظر ص ٥٥ تعليق ٧ .

ورابعاً : معلوم أن ابن الجوزي كان من كبار الحنابلة ، وهذا سبب ما نراه من عناية ظاهرة بأعمار الحنابلة ، وهو ما يُفسّر لنا أيضاً إغفاله لأعمار بعض العلماء الأعيان ممن لهم شهرة ونباهة ، فمِغيار « الأعيان » عنده - في غالب الأمر - الحنبليّة أولاً ، ثم يأتي بعض المشاهير الآخرين ، في مناصبهم أو في علومهم ، وعلى ذلك لا نستطيع أن نقول إنه استقصى « الأعيان » بالمعايير العامّة .

خامساً : ابن الجوزي بغداديّ المولد والوفاة ، وهو مشدودُ النظر إلى بغداد ، لا يكاد يُدير وجهه عنها ، ولذلك يبدو في كتابه المنتظم - وهو أشهر مصنفاته التاريخيّة - كما يقول الدكتور شاکر مصطفى : « بغدادياً عراقياً ، لا إسلامياً عالمياً » ، لأنه يركز جهوده على تاريخ بغداد بالذات ، ذاكراً في ختام حوادث كلّ سنة وفیات الرجال فيها ، وهم بدوّرهم بغداديون في الأغلب ، (١) .

فلا عجب إذن أن يكون معظم « أعيانه » في هذا الكتاب من البغداديين ، فكان « البغدادية » هي المِغيارُ الثاني عنده بعد « الحنبليّة » ولا نكّرة - إن شاء الله - فإن حبّ البلد (٢) ، والعصبية للمذهب مما هو مركز في الطّباع .

* * *

(١) التاريخ العربي والمؤرخون ١٠٨/٢ ، ١٠٩ .

(٢) مثلاً يُستأنس به هنا قول بهاء الدين محمد بن إبراهيم بن النحاس المتوفى سنة ٦٩٨ ، في مقدمة كتابه هدى مهابة الكتّابين ص ٧٣ ، ٧٤ : « فإن بعض من يهزّ عليّ جاءني بقصيدة الأديب العالم الفاضل المتقن شهاب الدين محاسن بن إسماعيل بن علي بن أحمد بن الحسين بن إبراهيم الحلبي المعروف بالشوّاء ، تغمّده الله برحمته ، التي جمع فيها بعض ما يقال بالياء والواو ، واتّمسّ منّي أن أتبه على ما جمعه منها ، فتشطني لذلك جامع البلدنة ، وأن أوميء إلى مقدار ما اشتمل عليه أهل بلدي من الفضائل ، وما امتازوا به من العلوم التي لم يحرّر مثلها إلا أكابر الأوائل » .

مصادر الكتاب

لم يُصرِّح ابن الجوزي بشيء من موارده ومصادره ، إلا ما كان من النقل عن أبي حاتم السَّجِسْتَانِي ، في أعمار المعمرين ، ثم ما كان من النقل عن ابن أبي الدنيا ، في مروياته عند ذكر رأس العقد . ومن النقل عن ابن قُتَيْبَةَ (١) .

لكنني رأيتُه يدور كثيراً حول الخطيب البغدادي ، في (تاريخ بغداد) وإن لم يصرِّح بذلك ، ويظهر هذا عند اختلاف الأعمار في الكُتُب والمصادر ، فهو دائماً مع الخطيب ، آخذاً منه ، ومعتمداً ما فيه . وقد علَّقْتُ على بعض من ذلك ، وتركت بعضاً (٢) .

...

(١) ص ١١٧ .

(٢) انظر صفحات ١٨ تعليق (٤٠١) ، و ٤٤ تعليق (١٠) ، و ٥١ تعليق (٦) ، و ١٠١ تعليق (٢) . وتأمل عبارة الذهبي حين ذكر الكُتُب التي عوَّل عليها ابن الجوزي في الحديث : « ولم يرحل في الحديث ، لكنَّه عنده » مسند الإمام أحمد » ، و « الطبقات » لابن سعد ، و « تاريخ الخطوب » ، وأشياء عالية ، و « الصحيحان » ، و « السنن الأربعة » والحلية » بحر أعلام النبلاء ٣٦٦/٢١ .

نُقول المتأخرين عنه

هذا الكتاب مذكور في ترجمة ابن الجوزي ، معدود في مؤلفاته ^(١) ،
ومن نقل عنه صراحة ، شمس الدين بن خلّكان ، في ترجمة البحترى ^(٢) .

وقد رأيت مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي وكأنه نظر في هذا
الكتاب ^(٣) ؛ لأنه كثيراً ما يُنصّ على أن المترجم توفي عن كذا عاماً ، وترى
هذا كثيراً في كتابيه العبر وسير أعلام النبلاء ، ولم أر ذلك شائعاً عند غيره من
المؤرخين .

ويكاد الذهبي يُصرّح بالنقل عن هذا الكتاب ، عند ترجمة « سلمان
الفارسي » رضي الله عنه ، من سير أعلام النبلاء ، حين يقول : « وقد نُقل
طول عمره أبو الفرج بن الجوزي وغيره » ^(٤) .

ثم رأيت الألبشهي نقل شيئاً عن ابن الجوزي في أعمار المعمرين ، يتفق
بعضه مع ما في كتابنا هذا ^(٥) .

هذا وقد أظهرني الله عز وجل على نقل عزيز عن كتابنا هذا ، في كتاب
(التوضيح لكتاب المشته ^(٦) في الرجال) للحافظ ابن ناصر الدين محمد بن
أبي بكر عبد الله بن محمد الدمشقي الشافعي المتوفى سنة ٨٤٢ ، ولولا العلامة
الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني ^(٧) ، رحمه الله ، ما وقفت على ذلك

(١) مؤلفات ابن الجوزي ص ٧٠ ، ٧١ ، برقم (٣٣) وقد ذكر الأستاذ عبد الحميد العلوجي
الكب التي ذكرت أعمار الأعيان .

(٢) وفيات الأعيان ٢٨/٦ .

(٣) وقد ذكره في جريدة مصنفات ابن الجوزي ، في أثناء ترجمته من سير أعلام النبلاء ٣٦٩/٢١ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٥٥٦/١ ، وانظر كتابنا هذا ص ١١١ ، ١١٢ .

(٥) المستطرف ٧٤/٢ .

(٦) المشته للحافظ الذهبي ، كما هو معروف ، وهو مطبوع متداول .

(٧) كان رحمه الله عالماً جليلاً ، وكان حجة في علم الرجال وضبط الأنساب . توفي بمكة المكرمة

سنة ١٣٨٦ هـ . وانظر كلمتي الموجزة عنه في مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي ص ٢٠٣ - ٢٠٥ .

النقل العزيز : وذلك ما ذكره رضى الله عنه فى حواشى الإكمال لابن ماكولا ،
فى الكلام على « ثوب بن ثلدة » ، المذكور عندنا فى (عقد المائتين) (١) .

قال الحافظ ابن ناصر الدين ، فيما نقله المعلمى من كتابه التوضيح :
« وهكذا وجدته أيضاً مقيداً بالخط فى كتاب أعمار الأعيان لأبى الفرج بن
الجوزى ، فى نسخة قرئت عليه وعليها خطه » (٢) .

قلت : وهذه النسخة التى رآها الحافظ ابن ناصر الدين من (أعيان
الأعيان) ووصفها بأنها قرئت على ابن الجوزى وعليها خطه ، هى النسخة التى
أنشر عنها الكتاب ، وسيأتيك وصفها ، إلا أن يكون ابن الجوزى قد قرئت عليه
نسخة أخرى من الكتاب غير تلك ، وهذا بعيد !

(١) ص ١٠٨ .

(٢) الإكمال لابن ماكولا ٥٦٦/١ .

نسخة الكتاب

هى نفيسة من النفائس التى يضمها قسم المخطوطات بعمادة شئون المكتبات بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض^(١) . وكانت هذه النسخة فى ملك عَلم الأعلام الأستاذ خير الدين الزركلى^(٢) رحمه الله ، ثم آلت إلى قسم المخطوطات بجامعة الإمام محمد بن سعود ، فجزى الله العاملين بها خيراً .

والنسخة بقلم تعليق واضح ، وتقع فى عشرين ورقة ونصف ، أى فى إحدى وأربعين صفحة . ومسطرتها ١٦ سطراً ، فى كل سطر نحو ١٠ كلمات ، ومقاسها ١٣×١٨ سم .

كتب النسخة محمد بن عمر بن أبى بكر بن عبد الله المقدسى ، وفرغ منها يوم السبت ثالث عشر من رجب سنة ٥٩٢ ، بحروسة مزغرا^(٣) سروج .

وفى صفحة العنوان سماعٌ لصاحب النسخة وكتبتها ، على ابن الجوزى المؤلف ، تاريخه ثامن عشر شوال سنة ٥٨٥ ، وكتب ابن الجوزى بخطه صححة ذلك السماع . وهذا السماع منقول إلى نسختنا المكتوبة سنة ٥٩٢ ، فالناسخ سمع النسخة من مؤلفها سنة ٥٨٥ ، ثم نسخ نسخة لنفسه هى هذه المنسوخة سنة ٥٩٢ ، وكتب له ابن الجوزى بصحة ذلك السماع ، وقد أثبت ذلك السماع فى صدر المطبوع ، ثم ترى صورته الفوتوغرافية إن شاء الله .

وفى الجزء الأسفل من صفحة العنوان قراءة تاريخها سنة ٦٣٠ .
وبآخر النسخة سماعٌ على كاتب النسخة المذكور ، تاريخه سنة ٦١٣ .

(١) انظر حديث هذه النفائس فى : الفهرس الوصفى لبعض نواذر المخطوطات بالمكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية : إعداد محمود محمد الطناحى : الرياض ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م .

(٢) ويرجع إليها الزركلى كثيراً فى حواشى الأعلام ، وذكرها فى ثبت مصادره ومراجعته ٢٧٠/١٠ ، كما أخذ منها صورة خط ابن الجوزى ، وأثبتها فى موضع ترجمته .

(٣) انظر تعليقى ص ١٣٠ .

وفي حاشية الورقة الأولى التي بها خطبة الكتاب جاءت هذه القراءة :

« قرأتُ جميعَ هذا الجزء على الشيخ الإمام العالم العامل الأَوحد الصُّدر الكبير فخر الدين أُمى الحسن على بن أحمد بن عبد الواحد المَقْدَسِي ، بإجازته من ابن الجوزي ، فسمعه عبد الرحمن بن أحمد بن سامة . وصَحَّ بكرة ثامن عَشْرَى شهر رمضان المعظَّم سنة إحدى وثمانين وستائة ، بمنزله بسفح جبل قاسيون . وكتبه محمد بن عبد الرحمن بن سامة بن كوكب بن عزَّ بن حُميد ، عفا اللهُ عنه . »

قلتُ : والشيخ المقروء عليه هو : فخر الدين بن البخاري ، من كبار الفقهاء والمُحدِّثين ، وصفه الذهبي بِمُسْنِد الدنيا ، وقال ابن رجب : مُسْنَد الوقت ، وكان حنبليَّ المذهب ، روى عن ابن الجوزي وخلق كثير ، وطال عمره ، ورحل الطلبةُ إليه من البلاد ، وألحق الأسباطُ بالأجداد في علوِّ الإسناد . ولد سنة ٥٩٥ ، وتوفي سنة ٦٩٠ (١) .

أمَّا كاتب القراءة فهو : شمس الدين أبو عبد الله الحنبلي ، الحافظ المتقن المُحدِّث الصالح ، الدمشقي الصالح ، نزيل القاهرة ، كان فصيحاً سريعَ القراءة حسنَ الخطِّ ، ضابطاً متقناً ، كَتَبَ الكثير ، وفيه كَيْسٌ وتواضعٌ وعفةٌ ودينٌ وتلاوة ، وُلِدَ سنة ٦٦٢ ، وتوفي سنة ٧٠٨ (٢) ، فيكون قد حضر قراءة الكتاب وأثبتها وسبَّه ١٩ سنة .

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٣٢٥/٢ ، والعبر ٣٦٨/٥ .

(٢) ذيل العبر ص ٤٣ ، والوفاء بالوفيات ٢٣٩/٣ ، وذيل طبقات الحنابلة ٣٥٥/٢ ، والدرر

الكافئة ١١٧/٤ .

ولا تَحْمِلُنْ هذه الأوصاف التي تقرأها عن الرجل ، على المبالغة والاسترسال ، كما يظنَّ بعضُ من لا عقول لهم ولا اطلاع ، فإن هذه الأوصاف - فوق أنها حقٌّ صاحبها - تُؤكِّدُ الثقةَ بهذه العلوم والمعارف التي نقلها لنا القومُ روايةً أو كتابةً . وعلى الجانب الآخر فقد كان علماءنا ومؤرِّخونا يَبْهَوْنَ على من ليسوا محلَّ الثقة من العلماء والمُصنِّفين ، إرشاداً وتحذيراً من التحويل عليهم والاعترار بهم ، وكانوا يشتكُون في ذلك ويَعْتَفُونَ ، ولا يمنعهم من ذلك قراءة أو جِوَارٌ . قال جعفر بن محمد القلاطسي : سمعتُ محمد بن أبي السريِّ يقول : لا تكتبوا عن أخى فإنه كذاب - يعني الحسين بن أبي السريِّ : تهذيب الكمال ٤٦٩/٦ .

وجاء بحاشية الورقة السابعة سماعٌ على الشيخ فخر الدين بن البخارى المذكور ، بإجازته من مؤلفه . وهذا السماع بقراءة المحدث المفيد الشيخ أبى الحسن على بن مسعود بن نفيس الموصلى ثم الحلبي . وكُتِبَ هذا السماع يوم الأحد نصف شوال سنة ٦٧٨ ، بالمدرسة الضيائية بسفح جبل قاسيون ، ظاهر دمشق .

قلت : وقارىء هذا السماع ، وهو أبو الحسن على بن مسعود بن نفيس ، كان محدثاً مفيداً مشهوراً ، سمع وحديث وحصل أصولاً من الكتب ، وقَفَهَا ، وكان يجوع ويشترى الأجزاء ، وَيَقْنَعُ بِكَسْرَةٍ ، فيسوءُ خُلُقَهُ مع التقوى والصلاح . لزمه الذهبي وقال فيه : « كان ديناً خيراً متصوفاً متعقفاً ، قرأ مالا يوصف كثرة ، وحصل أصولاً كثيرة ، كان يجوع ويتناعها » ^(١) . وُلِدَ سنة ٦٣٤ ، وتوفى سنة ٧٠٤ .

* * *

(١) تذكرة الحفاظ ص ١٥٠٠ ، وذيل العبر ص ٢٦ ، والوفى بالوفيات ١٩٤/٢٢ ، وذيل طبقات الخبالة ٣٥١/٢ ، والدرر الكامنة ٢٠٣/٣ .

حواشى النسخة

على حواشى هذه النسخة النفيسة تعليقات وفوائد جيدة : تَضَمَّنَتْ إضافة أعمار بعض الأعيان الذين لم يذكرهم المؤلف ، داخل العقود ، أو الذين جاءوا بعد زمن المؤلف ، كما تَضَمَّنَتْ التنبيه على أوهام المؤلف أو الناسخ .

وبهذه الحواشى أيضاً نقل من كتاب (الثبات عند الممات) لابن الجوزى ، لم أجده فى المطبوع منه ^(١) .

ثم كان لى أنا أيضاً - على ضَعْف مُتْنِى وَقَلَّةِ حِيلَتِى - تنبيهات على بعض الأوهام ، تراها إذا أَتَتْ قراءَتُكَ على الكتاب إن شاء الله ، وتتصل هذه الأوهام بتكرير بعض التراجم فى عُقود مختلفة ، أو الخطأ فى مَبْلَغِ عُمُرِ الْمُتَرَجِّمِ ، أو التصحيف فى بعض الأسماء ^(٢) . هذا ؛ وسترى أيها القارئ الكريم - نفعلك الله بما قرأ - تطويلاً فى الحواشى والتعليقات ، وقد فعلته كارهاً له ، غير راغب فيه ، وما حَمَلْنِى عليه إلاّ منهجُ الكتاب القائم على الوجازة والاختصار ، بذكر الكُتْبِ أو التَّسَبُّبِ أو الشهرة فقط ^(٣) ، وليس كُلُّ الناس يَعْلَمُ ، وكان لابدّ أيضاً أن أذكر سنة الوفاة وأحرَّرها ، فقد وقع فى بعضها خلاف ، ثم إن الدلالة على موضع الترجمة من المراجع والمصادر مفيدة جداً لطالب العلم المبتدئ ، على أنى لم أذكر من مراجع الترجمة إلاّ ما كان فى مكتبتى ورأيتُه رأى العين ، ثم راجعت عليه الترجمة ، فإذا أُرِدْتُ استقصاءً فى مراجع الترجمة فانظر مراجعى واطْلُبْها واستفد منها ؛ فإن عند بعض المحققين من الكُتُب والعلم ما ليس عندى ، وبخاصة سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي ، وتهذيب الكمال لشيخه الحافظ المِزْزِى ، فإن

(١) انظر ص ١٣ .

(٢) وهذا كثير ، لكن انظر مثالين منه فى ص ٢٢ (ترجمة عبد الله بن مظعون) وص ٤٢ (ترجمة أبى جعفر بن المسلمة) . وانظر مثلاً على التصحيف فى ص ٩٩ (ترجمة قُرَّة بن ثَعْلَبَة) .

(٣) وسأَتِيكَ الاسم كاملاً - إن شاء الله - فى فهرس الأعلام ، محالاً عليه من الكُتْبِ أو النسبة أو الشهرة .

في حواشي هذين الكتابين علماً كثيراً ، أحسن الله إلى من حققهما ، وإلى من نشرهما .

فهذا ما كان من أمر تلك النسخة المخطوطة الوحيدة ، التي أنشر عنها الكتاب ، وهي نسخة جليلة ، كما رأيت . وهناك نسخة من الكتاب ، لم أستطع الظفر بها ، وهي النسخة التي ذكرها الأستاذ عبد الحميد العلّوجي ، في مؤلفات ابن الجوزي ، وأشار إلى أنها في مكتبة الغازي خسرو بك بسرايفو ، في يوغوسلافيا ، ضمن مجموع برقم ٣٠٠ - أي أنها في أثون البوسنة والهرسك ، فرج الله كربهما .

وزادت الدكتوراة ناجية عبد الله إبراهيم ، فذكرت تاريخ الفراغ من نسخ هذه النسخة ، وهو يوم الأحد تاسع عشر شهر صفر سنة ١٠٢٤ هـ (٢) .

وبعد :

فإني أسأل الله العليّ القدير أن أكون قد وقّفت في قراءة هذا الأثر العتيق ، وأن أكون قد أحسنت في أدائه والتعليق عليه ، ومن وقف على خطأ متى أو زلل فلينبهني عليه ، وليكتب لي به ، مشكوراً مأجوراً إن شاء الله ، ورحم

(١) مؤلفات ابن الجوزي ص ٧٠ ، ٧١ .

(٢) قراءة جديدة في مؤلفات ابن الجوزي ص ٣٩ ، نقلاً عن فهرس المخطوطات العربية في التركية والفارسية ، في مكتبة الغازي خسرو بك بسرايفو ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

اللهُ امرئًا أفدى إلى عيوى ، وابنُ آدم إلى النقص ماهو ! وربُّنا المحمودُ في الأولى
والآخرة .

وكتب ذلك
أبو محمد
محمود محمد الطناحي

في يوم الأربعاء ٢٣ من رجب الفرد ١٤١٤
٥ من يناير ١٩٩٤ م

٦ شارع بشَّار بن بُرد - المنطقة السادسة
مدينة نصر - القاهرة

كلمة عن ابن الجوزى

هو جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد ، ينتهى نسبه إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ^(١) .

أما « الجوزى » فى نسبه فترجع إلى أحد أجداده الأعلىين : « جعفر الجوزى » .

قيل : نسبة إلى قُرْضَة الجَوْز : موضع مشهور ، وقيل : إلى مَشْرَعَة الجوز ، وهى إحدى محالّ بغداد بالجانب الغربى . وقيل : نسبة إلى جَوْزَة فى داره .

وُلد ابن الجوزى ببغداد ، بدرّب حبيب ، سنة ثمانٍ أو تسعٍ أو عشرٍ وخمسمائة . ومات أبوه وله نحو ثلاث سنين ، ولما شب وترعرع حملته عمته - وكانت امرأة صالحة - إلى مجلس خاله الحافظ أبى الفضل محمد بن ناصر السّلامى ، فاعتنى به وأسمعه الحديث . وأوّل شيء سمع فى سنة ٥١٦ ، أبى وهو فى نحو الثامنة .

قال فى أوّل مشيخته : « حملنى شيخنا ابن ناصر إلى الأشياخ فى الصغر ، وأسمعنى القوالى ، وأثبت سماعانى كلّها بخطه ، وأخذ لى إجازات منهم ، فلما فهمت الطلب كنت أأزم من الشيوخ أعلمهم ، وأؤثر من أرباب النقل أفهمهم ، فكانت همّتى تجويد العُدّد ، لا تكثير العُدّد » ^(٢) .

ثم مضت حياة ابن الجوزى بين الجِدِّ فى الطلب والتحصيل ، وبين الإقراء

(١) لا سبيل إلى ذكر ترجمة كاشفة مستوعبة لابن الجوزى بعد هذا الفيهض من الترجمة له قديماً وحديثاً . لكنّ لابدّ من كلمة تكون تذكراً وعوناً لطالب العلم المبتدئ . ومن أراد المزيد فعليه بسير أعلام النبلاء ٢١ / ٣٦٥ ، والمراجع بمأشيتها . ثم مقدمة تحقيق « مشيخة ابن الجوزى » للأستاذ محمد محفوظ .

(٢) مشيخة ابن الجوزى ص ٥٣ ، نقلاً عن ذيل طبقات الحنابلة ٤٠١/١ . وانظر فهرس المشيخة ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

والتصنيف ، وقد بلغ فيه شأواً عظيماً . وقد سبق قول الحافظ الذهبي عنه : « وما علمت أحداً من العلماء صنّف ما صنّف هذا الرجل » وروى أن ابن الجوزي سئل عن عدد تصانيفه ، فقال : « زيادة عن ثلاثمائة وأربعين مصنفاً ، منها ماهو عشرون مجلداً ، ومنها ماهو كراس واحد » . وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في أجوبته المصرية : « كان الشيخ أبو الفرج مفتياً كثير التصنيف والتأليف . وله مصنّفات في أمور كثيرة ، حتى عدّدها فرأيتها أكثر من ألف مصنّف ، ورأيت بعد ذلك ما لم أره » (١) .

يقول الحافظ الذهبي في وصفه : « الشيخ الإمام العلامة ، الحافظ المفسر ، شيخ الإسلام مفخر العراق وكان رأساً في التذكير بلا مُدافعة ، يقول النظم الرائق ، والنثر الفائق بديهاً ، ويُسهب ، ويُعجب ، ويُطرب ، ويُطرب ، لم يأت قبله ولا بعده مثله ، فهو حامل لواء الوعظ ، والقيم بفنونه ، مع الشكل الحسن ، والصوت الطيب ، والوقع في النفوس ، وحسن السيرة ، وكان بحراً في التفسير ، علامة في السيرة والتاريخ ، موصوفاً بحسن الحديث ، ومعرفة فنونه ، فقيهاً ، عليمًا بالإجماع والاختلاف ، جيّد المشاركة في الطب ، ذا تفقّنه وفهم وذكاء وحفظ واستحضار ، وإكباب على الجمع والتصنيف ، مع التصوّن والتجمل ، وحسن الشارة ، ورشاقة العبارة ، ولطف الشمائل ، والأوصاف الحميدة ، والحرمة الوافرة عند الخاصّ والعام ، ما عرّف أحداً صنّف ما صنّف » (٢) .

وقال الموفق عبد اللطيف البغدادي في تأليف له : « كان ابن الجوزي لطيف الصورة ، حلّو الشمائل ، رخيّم النعمة ، موزون الحركات والنغمات ، لذيذ المفاكهة ، يحضر مجلسه مائة ألف أو يزيدون ، لا يُضَيّع من زمانه شيئاً ، يكتب في اليوم أربع كراريس ، وله في كلّ علم مشاركة ، لكنه كان في التفسير من

(١) الذيل على طبقات الخبالة ١/٤١٣ ، ٤١٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/٣٦٥ ، ٣٦٧ .

الأعيان ، وفي الحديث من الحُفَاف ، وفي التاريخ من المتوسعين ، ولديه فقه كاف ، (١) .

وقد عُلِّتْ شهرةُ ابن الجوزي في الوعظ والتذكير ، وقد حضر بعض مجالسه في الوعظ الرحالة ابن جُبَيْر ، المتوفى سنة ٦١٤ ، وقد وصف مجلساً من مجالسه في شهر صفر سنة ٥٨٠ ، فقال : « ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه الإمام الأوحـد جمال الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي فـشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد ، وفي جوف الفراكل الصيـد ، آية الزمان ، وقرّة عين الإيمان ، رئيس الحنبليّة ، والمخصوص في العلوم بالرُّبّ العليّة ومن أبهر آياته ، وأكبر معجزاته ، أنه يصعد المنبر ، ويتدىء القراء بالقرآن ، وعددهم نيف على العشرين قارئاً ، فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القراءة يتلونها على نسقٍ بتطريب وتشويق ، فإذا فرغوا تلت طائفة أُخرى على عددهم آية ثانية ، ولا يزالون يتناوبون آياتٍ من سورٍ مختلفات ، إلى أن يتكاملوا قراءة ، وقد أثّروا بآياتٍ مشتبهات ، لا يكاد المتقّد الحاطر يحصلها عدداً ، أو يُسمّيها نسقاً .

فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن في إيراد خطبته ، عَجَلاً مُبْتَدِئاً ، وأفرغ في أصـداف الأسماع من ألفاظه دُرُراً ، وانتظم أوائل الآيات المقروءات في أثناء خطبته فقرأ ، وأتى بها على نسق القراءة لها ، لا مقدّماً ولا مؤخراً . ثم أكمل الخطبة على قافيةٍ آخر آية منها .

فلو أن أهدّغ من في مجلسه تكلف تسمية ما قرأ القراء آية على الترتيب لعجز عن ذلك ، فكيف بمن يتنظمها مُرتجلاً ، ويورد الخطبة القراء بها عَجَلاً ! « أَفَسِحَرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ » [الطور : ١٥] « إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِين » [اهل : ١٦] - فحدّث ولا حرج عن البحر ، وهيئات ، ليس الخبر عنه كالخبر .

(١) سر أعلام النبلاء ٣٧٧/٢١ .

ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برفائش من الوعظ ، وآيات بينات من الذكر ، طارث لها القلوب اشتياقا ، وذابت بها الأنفس احتراقاً ، إلى أن علا الضجيج ، وتردد بشهقاته النشيج ، وأعلن التائبون بالصياح ، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح ، كل يلقي ناصيته بيده فيجزها ، ويمسح على رأسه داعياً له ، ومنهم من يعضى عليه فيرفع في الأذرع إليه ، فشهدنا هؤلاء يملأ النفوس إنابةً وندامة ، ويذكرها هؤلاء يوم القيامة ، (١) .

وبرغم هذه الشهرة العريضة التي استحقتها ابن الجوزي بعلمه ووعظه وكثرة تصانيفه ، فإن الحياة لم تصف له ، وابتلى بميختين :

الأولى : أن بعض الرافضة وشى به إلى الخليفة الناصر ، وكان الناصر يميل إلى الشيعة ، ولم يكن له ميل إلى ابن الجوزي ، فلما وشوا به إليه أرسل من شتمه وأهانته وأخذ قَبْضاً باليد ، وختم على داره ، وشئت عياله ، ثم حُبل إلى سفينة ونُقي إلى مدينة واسط ، فحبس بها في بيت خرج ضيق ، وكان في أثناء ذلك الحبس يخدم نفسه ، ويغسل ثوبه ، ويطبخ ، ويستقي الماء من البئر (٢) ، وكانت هذه المحنة من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٥٩٥ ، فكانت غاشية من الغواشي أطبقت عليه وهو في الثمانين من عمره ، ولم يعيش بعدها سوى عامين .

والحنة الثانية : كانت في ولد له يُسمى « علياً » أخذ مصنفات والده وباعها تبع العبيد ، ولمن يزيد ، ولما أخير والده إلى واسط ، تحيل على الكُتب بالليل ، وأخذ منها ما أراد ، وباعها ولا يضمن المِداد ، وكان أبوه قد هجره منذ سنين ، فلما امتحن صار حَرَباً عليه (٣) .

وفي ليلة الجمعة ، بين العشائين ، الثالث عشر من رمضان سنة ٥٩٧ ، توفي ابن الجوزي ، بعد مرض لم يدم أكثر من خمسة أيام ، وكان يوم جنازته

(١) رحلة ابن جبير ص ١٩٦ - ١٩٨ ، وذكر له مجلساً آخر .

(٢) سمر أعلام البلاه ٣٧٦/٢١ ، والذيل على طبقات الحنابلة ٤٢٦/١ .

(٣) المرجعين السابقين ص ٣٨٤ ، ٤٣١ .

يوماً مشهوداً ، غُلِّقَت الأسواق ، وازدحم الخلق ازدحاماً شديداً ، وكان يوماً
قائظاً من أيام ثُمُوز (يوليو) فافطر خَلْقٌ ، وَرَمَوْا أَنْفُسَهُمْ فِي الْمَاءِ ، وَحَزَنَ
النَّاسُ عَلَيْهِ حُزْناً شديداً ، وَبَكَوْا عَلَيْهِ بَكَاءً كثيراً . رَحِمَهُ اللَّهُ وَرَضَى عَنْهُ .

* * *

صور مخطوط الكتاب

من مولاهم رحم الله علي

من مولاهم رحم الله علي

بسم الله الرحمن الرحيم

⑥

بن الجوزی مد الله في عمره

عبد الله المحفل

وَالْعَالَمِينَ

صاحبہ الفقیر الامام العالم الاول محمد علی بن ابی عبد اللہ الخیر علیہ السلام

سؤال ١٥٥: عس وکایس دنامه بحریه بعد از دیدار الیچ الشاطیة و صح و

الحمد لله الذي جعل في كل شيء حكما وعلما

و بعد از آنکه در این کتاب و سایر کتب که در دسترس است، به نظر می‌آید که هیچ‌کس به این موضوع توجه نکرده است.

وَحَطَّه . وعبارته : هذا صحيح وكتب عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي :

وَحَطَّهُ . وعبارته « هذا صحيح وكتب عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي »

